مجلة كل العرب
هلنا
تأسست يونيو 2023

رئيس التحرير
عيد وحيده
رئيس القسم الليبي
خالد سليمان الزغيبي
رئيس مجلس الإدارة
عصمت ضيف الله الملهطاني

موسم الجلامة

العدد ٣٥
مايو ٢٠٢٦
السنة الثالثة

صديق بو عبعاب ..
الرقم الصعب في الفن البدوي



السادة الحاصلون على نجوم ذهبية

شيخ الصحفيين . عيد وحيده	م. محمود الفحام
الصحفي . حسني جرامون ★★★	أ. ناجي بو المسمارية ★★
د. خالد الزغيبي ★★	أ.د. إبراهيم العايش ★★
الأثري . عبد الله لعشيبي ★	د.م. إبراهيم شعبان ★
أ. عبد الله أبو زوير ★	أ.د. حسن شعبان ★
أ. صابرين الصباغ ★	أ. فدوره العجني ★
	د. رمضان ياسين ★

مجلة كل العرب
هلنا
العدد ٣٥ - مايو ٢٠٢٥
تأسست يونيو 2023
السنة الثالثة





نبارك للمهندس الشاعر محمود الفحام ، حصوله على أيقونة النسر



إقرأ في هذا العدد

مجلة كل العرب
هلنا

رئيس التحرير
عيد وحيده
رئيس مجلس الإدارة
عصمت ضيف الله الملهطاني

تأسست يونيو 2023
السنة الثالثة



رئيس القسم الأدبي
م. محمود الفحام

رئيس القسم الإجتماعي
أ. حسني جرامون

رئيس قسم تراث البادية
المستشار ناجي بو المسمارية

رئيس قسم الشؤون الليبية
دكتور خالد الزغيبي

رئيس قسم التراث الشعبي الليبي
أ.د. إبراهيم العايش


م. محمود الفحام
لبيك اللهم لبيك - شعر 5


أ. عبد الله موسى لعشيبي
موسم الجلامة 10


أ. ناجي بو المسمارية
من تراث البادية 15


أ. حسني جرامون
إن بعض الظن إثم 18


د. خالد سليمان الزغيبي
صديق بو عبعاب 22

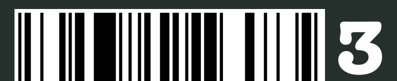

شيخ الصحفيين. عيد وحيده
عجبت لك يا زمن 27


د.م. إبراهيم شعبان
تسريبات من مقر إبليس (٣) 29


أ. فريحة المريمي
حينما يكون الوطن نبضًا لا يساوَم 36


أ.د. إبراهيم العايش
الخراريف وحكايا النجع 39


م. عصمت ضيف الله الملهطاني
الواحات المفقودة (١٣) 44



تعريف بالسادة كتاب هذا العدد

مجلة كل العرب
هلنا
العدد ٣٥ - مايو ٢٠٣٥

تأسست يونيو 2023
السنة الثالثة





م. محمود الفحام
شاعر وأديب مصري وعضو اتحاد الكتاب



الأثري . عبد الله موسى لعشيبي
مدير الاثار بمطروح



أ. ناجي بو المسمارية
عضو لجنة التراث بمطروح



الصحفي . حسني جرامون
صحفي مصري



د. خالد سليمان الزغيبي
استاذ فلسفة القانون جامعة بنغازي



شيخ الصحفيين . عيد وحيده
رئيس التحرير



د.م. إبراهيم شعبان
كبير مهندسي صناعة السفن وكاتب مصري



أ. فريحة المريمي
صحفية ليبية



أ.د. ابراهيم العايش
استاذ العلوم السياسية بجامعة سرت



عصمت ضيف الله الملهطاني
رئيس مجلس الإدارة













Elena Rodriguez | Fashion Editor

Trend forecaster and stylist. Featured in Elle, W Magazine, and Interview.



مجلة كل العرب
هلنا
العدد ٣٥ - مايو ٢٠٣٥

لبيك اللهم لبيك

شعر
م.محمود الفحام









الشمسُ باسمةُ المُحيّا تطلعُ
سبحانَكَ اللهمَّ أنتَ المبدعُ

عيدُ الفداءِ أظلَّنا بسنائِهِ
والبِشرُ في صدرِ الخلائقِ يينعُ

ألهمتَ يا أللهُ عبدَكَ رؤيةً
وذبيحُ رؤيا الحقِّ لا يتمنَّعُ

إذ قال: يا أبتاهُ افعلْ ما ترى
ويُسلِّمُ الجسدَ الكريمَ ويخضعُ

لمّا هممتَ يا خليلُ بذبحِهِ
والقلبُ يحنو والجوارحُ تدمعُ

يأتيكَ جبريلُ الأمينُ منادياً
جئنا بذبحٍ يفتديهِ فتخشعُ









أسكنتَ بالوادي الجديبِ أحبّةً
كلَّ أمامِ شذا النبوةِ طيّعُ

فإذا بزمزمَ ماؤها متفجّرٌ
قد فاضَ بالعذبِ الزلالِ الموضعُ

ودعا الخليلُ إذِ الحجيجُ تؤمُّهُ
عبرَ الدهورِ وبئرُ زمزمَ يترعُ

حُجاجُ بيتِ اللهِ في عرفاتِهِ
عن كلِّ أطماعِ الحياةِ ترفَّعوا

وقفوا بساحِ الحقِّ لا يعنيهمُ
غيرُ الدعاءِ وبالدموعِ تضرَّعوا

والكعبةُ الغرّاءُ طافوا حولَها
والسعيُ للقلبِ المشوقِ يُمتِّعُ



ويقولُ ربُّ العرشِ من عليائِهِ
إني المُجيبُ لمن لنا يتطلعُ

أحرمتَ يا عبدي وجئتَ مُلبِّياً
أهلاً بضيفي قُلْ وإني أسمعُ

من حجّ عادَ كيومِ جاء إلى الدُّنا
تُبْ صادقاً كلُّ الذنوبِ سترُفعُ

يا ربِّ هامَ الصبُّ عشقاً للّذي
يومَ القيامةِ للبريةِ يشفعُ

حلمي أزورُكَ يا حبيبُ وأرتوي
وبساحِ روضتِكَ الشريفةِ أركعُ

وأطوفُ بالبيتِ العتيقِ مكبِّراً
ومقامُ إبراهيمَ نورٌ يسطعُ

وأُقبِّلُ الحجرَ الذي قبّلتَهُ
فالمسكُ من أرجائِهِ يتضوَّعُ

لبيكَ يا اللهُ ملءَ جوارحي
هزَّت فؤاداً ساهراً لا يهجعُ

فأفضِ عليَّ بقولِها في مكةٍ
وامنُنْ على المشتاقِ فضلُكَ أوسعُ

يا ربِّ إني قد حظيتُ بأنعُمٍ
لكنَّني أصبو لما هو أروعُ

فاجعلْ حصادَ العمرِ قبلَ فواتِهِ
حجّاً لبيتِكَ هل تراني أطمعُ؟

أدعوكَ يا أللهُ فاقبلْ دعوتي
فالعمرُ يمضي والمنايا رُتَّعُ





أنطلاق موسم الجلامة..كيف يحتفل أبناء بدو مطروح بموسم جز الأغنام

الأثري .
عبد الله موسى لعشيبي

في مثل هذا التوقيت من كل عام، تشهد محافظة مطروح موسم «الجلامة»، وهو جز صوف الغنم، الذي يعد محفلًا تراثيًا واجتماعيًا واقتصاديًا تشهده المحافظة، حيث يعتبره مربو الأغنام عيدًا وموسمًا سنويًا يبدأ في الربيع، وتحديدًا في الأول من شهر مايو، ويستمر لمدة شهر قبل حلول فصل الصيف.

أما «الجلامة» فتعني عملية قص أو جز الصوف عن الأغنام، من خلال متطوعين يطلق عليهم في التراث البدوي «الرغاطة»، وهم من الأقارب والأصدقاء والجيران الذين يأتون لمساعدة مالك الأغنام، حيث توزع بينهم المهام ما بين: «الجلام»، و«الصراع»، و«الضمام»، و«الفكاك»، ولكل صاحب وظيفة من هؤلاء دوره المحدد.



يمر موسم «الجلامة» بعدة مراحل، ولكل مرحلة اسمها الخاص؛ فـ«الجلامة» تعني جز الصوف، و«المجلم» هو المكان الذي تتم فيه عملية الجلامة، وهناك «الرغاطة» وهم المتطوعون للقيام بالعملية. وفي هذا الوقت اختفت عملية «الرغاطة» إلا فيما ندر، وبدلًا منها يوجد أشخاص يقومون بالجلامة بمقابل مادي. وعندما يدخل أحدهم على الجلامة يقول: «النور النور يا جلامة»، ليرد الحضور: «النور ولا ظلام القبور».

ومن الوظائف المعروفة في هذا الموسم «العظروط»، وهو من يقوم بجلب الشاة وربطها بـ«الكتّاف»، وهو الحبل الذي تُربط به الشاة ويُسمى «بالغنّام»، والعملية كلها تسمى «التغنيم»، ويقال «غنمها» أي اربط أرجلها الأربعة. وهناك «الرحّام»، وهو من يقوم بفك رباط الشاة عندما ينتهي الجلام من إكمال عملية الجز.

وتتم عملية «الجلامة» للأغنام لسببين؛

الأول: ارتفاع الحرارة في الصيف وعدم وجود الظلال في المراعي، مما يجعل الأغنام تشعر بالظمأ الشديد، فتشرب المياه بكمية أكبر من الأكل، وهو ما يؤثر سلبًا على أوزانها، وتتأثر أسعارها تبعًا لانخفاض وزنها. والسبب الثاني: لتسهيل «الظروبة»، وهي عملية الإنجاب وتزايد أعدادها لدى المربين ومالكي الأغنام، وغالبًا ما تكون «الجلامة» لإناث الخراف «الحوليات» وبعض الذكور الكبار أو ما يعرف بـ«الكبش».

طقوس يوم الجلامة

و«يوم الجلامة» يكون بمثابة العيد؛ لما له من طقوس احتفالية في العادات البدوية الأصيلة، فيتم توزيع الأدوار ليوم «الجلامة» بين مالكي الأغنام بالاتفاق، كل حسب الوقت المناسب له.

ويعلن المتطوعون للمشاركة في الجلامة، وتتم دعوة بعض الأقارب من دولة ليبيا للمشاركة في يوم الجلامة، وغالبًا ما يكون المتطوعون «الرغاطة» من الشباب الذين تبدأ أعمارهم من سن 18 عامًا؛ لأن عملية «التجليم» مرهقة وتحتاج إلى مجهود عضلي لا يقوى عليه الأطفال ولا كبار السن.

وتنصب الخيام البدوية «البيت» في مكان بعيد عن مهب الرياح؛ لأن حرارة الجو تسهل عملية «التجليم»، وتبدأ العمليات مبكرًا في تمام السادسة صباحًا،



وتوزع فيها المهام على المتطوعين، فمهمة «الصراع» الإمساك بالشاة من مكانها، وتكتيف أقدامها الأمامية والخلفية عكس بعضها، ويسلمها لـ«الجلام» وهو من يقوم بعملية جز الصوف عن الشاة، وعند إتمام الجلامة يأتي دور «الفكاك» الذي يفك الشاة ويعيدها إلى القطيع، وأخيرًا يقوم «الضمام» بلم الصوف وضمه.



في التاسعة تقريبًا، يتم تقديم الإفطار للجلامة، وهي وجبة شهيرة في المجتمع البدوي تعرف بـ«المفروكة»، وهي وجبة مكونة من خبز رقيق «مجردق» ساخن، وتمر وزبدة، بالإضافة إلى اللبن الرايب أو المالح. وفي وقت الضحى تقدم وجبة «الضحوية»، وعادة ما تكون عبارة عن لبن و«مفروكة»، وهي خلطة لذيذة من خبز رقيق غير مخمر.

ثم يأتي موعد ما يطلق عليها «كرامة الجلامة»، ويحدد لها وقت الظهيرة، حيث يقوم مالك الغنم بذبح عدد من الأغنام أمام «الرغاطة»، تتكون من اثنين أو ثلاثة على حسب عددهم والضيوف، وتطهى لتقدم كوجبة غداء لهم، ويشترط توافر كميات اللحوم بكثرة؛ تقديرًا للمشاركين في «الجلامة» لأنهم لا يتقاضون أجرًا مقابل قيامهم بالتجليم لأصحاب الأغنام.

وقد ذكر في كتاب «تراث النجع» للمبدع منعم العبيدي: «يوم المجلم، هو يوم جز صوف الأغنام، ويعد من الأيام الجميلة والمليئة بالطقوس التراثية الأصيلة».

ويكون يوم المجلم في آخر فصل الربيع، وعادة ما يكون بعد يوم 18 إبريل من كل عام، ويسمى هذا الوقت من العام بـ«وقت اللوايا»، وهو وقت تمنع فيه المياه عن الأغنام. وفي صباح يوم المجلم تدخل الأغنام إلى «بيت العرب» من المقدمة، حيث تتم عملية التجليم أو جز الصوف، وتخرج بعد الانتهاء من مؤخرة البيت.

الأدوات المستخدمة

أما بالنسبة للأدوات المستخدمة في تلك العملية، فهناك «الجلم» وهو أداة تشبه إلى حد ما المقص ولكنها أكبر بكثير، ويوجد أيضًا «القروي» وهو أداة تشبه الجلم ولكنه صغير بعض الشيء. ويحضر «السنان» في تلك العملية، ومهمته سن الأدوات بواسطة «المسن»، وهو عبارة عن قطعة حجر صوان خاصة بسن الأدوات الحادة كي لا تدثر، أي لا تبرد.



موسم الجلامة وأثره على الفن الشعبي البدوي

وهناك مساحة كبيرة للفن الشعبي التراثي مخصصة لهذا اليوم، فأثناء المجلم يقوم الشباب بما يعرف بـ«التقذير»، وهي عادة يتم خلالها ترديد بعض الأشعار البدوية «القذارة»، مصحوبة بالغناء بصوت خفيض، وهذه الأغنيات تفصح عما بداخل الجلام من أحاسيس ومشاعر، وقد تكون «القذارة» رسالة خاصة لشخص معين يحضر المجلم،

مثل سؤال القذار لأحد الحضور عن موضوع حساس، وبانتهاء القذار من إلقاء «قذارته» تطلق بعض الأعيرة النارية الاحتفالية.

وينقسم هذا الغناء إلى «القذير» و«الترجيز»، وهو عبارة عن تحدٍ قوي بين اثنين من الجلامين بعبارات تحمل أفكارًا بليغة ومركزة للغاية في معانيها، ولها إسقاطات جميلة، فيتخذ كل منهما رمزًا يدافع عنه بالقذارة،

فمنهم من يتمثل في شخص «الذئب»، ومنهم من يبدو في ثوب «الراعي».

ومما قيل في الشعر البدوي المطروحي عن هذه العملية: يقول الجلام ممثلًا: «الذيب شايل عناق البيت .. الذيب جاك يا بو بُندقة»، وتعني السخرية من الراعي حامل البندقية؛ لأن الذئب خطف إحدى صغار الماعز.

فيرد الجلام الآخر ممثلًا (الطراي) وهو المدافع عن الغنم أو الراعي: «غالية علي الرعيان .. يشقى الذيب ياما دونها»، وتعني تكذيب الخبر بأن هذه المخطوفة محببة لدى الراعي ولا يستطيع الذئب سرقتها مهما حاول.

ويقول أيضًا: «لقيوا رميمته مقتول .. الذيب وين ما جا للغلم»، أي وجدت جثة الذئب مقتولًا عندما حاول الاقتراب من الأغنام.

فيرد الآخر: «يتاوق عقاب الليل .. الذيب يا غلم ما ينقتل»؛ أي أن الذئب يظهر في أواخر الليل ولا يستطيع أحد قتله.

أما الترجيز، والمفرد ترجيزة، فهو عبارة عن بيت واحد مقفى على وزن بحر الرجز، ويدل على الفخر بكثرة صوف الأغنام، ولا يخلو من عبارات الحنان والرفق بالشاة التي بين يديه أثناء تجليمها أو جز صوفها.

ومن أمثلة الترجيز: «لا تخافي .. فيدي قروي»، وهنا يطمئن الشاة بأن أداة الجز صغيرة، وفي نفس الوقت يتفاخر بأن أغنامه منها الصغيرة والكبيرة، ويدل هنا على أنها ولادة وكثيرة.

«قاض السنان .. والجالم لان»، أي تعب السنان من كثرة السن، والجلم الحديدي لان وانثنى من كثرة الصوف.

«ليش تنيني .. تحت يميني»، وهنا يخاطب الشاة: لماذا تبتعدين وتصدري أصواتًا حزينة وأنت تحت يميني؟ وهذا قول يدل على أن يده رقيقة ولا تؤلم.

من قصص الجلامة الطريفة ما روي أن الشاعر «ضي المغواري»، سلطان شعراء البادية - رحمه الله - وهو من أبناء مطروح، ذهب إلى ليبيا، وبالتحديد ضواحي بنغازي،

متجهًا إلى أخواله من قبيلة العواقير الليبية، وكان يرتدي ثوبًا أسمر واسع الأكمام. فجاء لأحد أصدقائه فوجد عندهم مجلمًا، ولم يجد صاحبه موجودًا، فجلس على الصوف، فظن الشباب أنه مجرد عامل بسيط يبحث عن عمل، فبدأت عبارات الاستهزاء، فلم يتكلم. اقترب منه أحد الشباب وقال له: «تعرف إتجلم؟»، فقال: «نعرف إنقص بس». فأتوا له بشاة وأعطوه الجلم، وقال له شاب آخر: «تعرف اتقذر؟»، فقال: «لا». فقالوا له: «قل ياليل ياعين...»، فقال لهم: «أقول ياليل بس». فقالوا له: «نعم، قول ياليل ياعين ياليل». فأمسك ضي المغواري بالجلم وأخذ يقول: «ياليل ياليل ياليل ياليل ياليل»، وهم يضحكون. ثم أشعر وارتجز فأفحمهم قائلًا:

ياليل ياليل
لابرق ضوا لا رعد لا سيل
الضان جافيه
ياليل حن عليها
وياليل من عندك إشبوب عطيها
حتي المصغره غرزت علي حوليها
ما عاد فيها لا جهد لا حيل
ياليل ياعين ياليل
وقذر فقال:
إيدير في ظلامك فجر.. إتريد برق ياليل الغلم

فتفاجأ الجلوس، وجاء صاحب المجلم وقال لهم: أتدرون على من تستهزئون؟ إن ضيفكم هو الشاعر الكبير ضي المغواري.

وتنتج الرأس الواحدة ما يقرب من كيلوجرامين من الصوف، حيث يتم تجميع الكمية بكاملها، ثم تنقى وتفرز من القطع المتكتلة أو المعيوبة، وغالبًا هي قطع الصوف الموجودة في المنطقة الخلفية للأغنام، أو منطقة «اللية». وبعد فرز الصوف الجيد، يتم شطفه أو غسله بالماء، ويترك ليجف جيدًا، ثم يتم غزله إلى خيوط لصنع المنسوجات الصوفية المحلية، كالأغطية والفرش مثل: «اللحاف والمخدات والأكلمة»، فضلًا عن الثياب التقليدية الجرد (الحولي). والصوف قابل للتخزين لفترات طويلة دون أن يتأثر طالما تم تجفيفه جيدًا، ويساوي قنطار الصوف 45 كيلوجرامًا.



مجلة كل العرب
هلنا
العدد ٣٥ - مايو ٢٠٢٥

تراث البادية

أ . ناجي بو المسمارية



الدموع والبكاء في تراثنا البدوي والفصيح

بين إطلاق العنان والإجهاش والنحيب، أم الكتمان و"زمط" العبرات (كظمها).. أيهما أفضل؟

فهناك من يفضِّل الكتمان ولو أدى به الأمر إلى الهلاك، ومنهم من قال: "من خوف الشماته فيه الخاطر سواياك دسهن" والشامتون اليوم أكثر من دراع الكبد، بل متطوعون حتى من غير معرفة يشمتون — لله وللوطن فقط.

وكما قال الشاعر المؤيد لهذا الاتجاه الكتماني (باللهجة البدوية): #من الواجب عليه العقل يكمي حسيسته نين تقتله (أي: من الواجب على العاقل أن يكبت أحاسيسه وإلا قتلته)

وهناك من يؤيد "السروحة" (إطلاق البكاء)، مثال الشاعر البدوي في إحدى قصائد البيت الواحد: #على عقول مليانات بكية العين ياماهونت (أي: العقول الممتلئة بالهموم — بكاء العين ليس بمذلة)

وتقول ابنة عمنا الشاعرة الخنساء السلمية — وهي من قبائل بني سُليم — في قصيدتها الباكية: يؤرقني التذكر حين أمسي وأصبح قد بليت بفرط نكسي ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

فقد اكتشف شعراء العرب فوائد الدمع والبكاء العظيمة منذ أمد بعيد، وقبل أن يكتشفها علماء الغرب أخيراً. فقد اكتشفوا أن البكاء أقوى مسكّن وأعظم مهدئ للقلوب الحزينة والكسيرة، وأن الإنسان الذي لا يبكي أكثر عرضة للصدمات والأمراض والعقد النفسية. ولذلك كثيراً ما ينصح أطباء علم النفس مرضاهم ألا يكتموا مشاعرهم، خاصة عند وقوع الصدمات.

فلا تخجلوا من البكاء، ولا تكتموا عبراتكم، وكما يقال باللهجة البدوية: (كنيب تشغلي الأولوف —

خلي أبكاك يا عين فقففقه) والبكاء سمح، حتى لو اضطررتم للاختلاء بأنفسكم.

فمع أهمية الدموع للجانب النفسي، نجد أن لها فوائد كبرى من الجوانب العضوية. فالدموع تعتبر أقوى مطهر للعيون، تحتوي على مادة ملحية ومضادات حيوية مهمة قاتلة للميكروبات، طاردة للغبار والأتربة، تعالج الالتهابات، ومرطبة للعينين وتحميهما من الجفاف. وما كل القطرات التي أنتجها العالم إلا تقليداً للدموع.

والملاحظ أن أهل البادية والعرب ككل هم أكثر الشعوب الذين يكتمون أحزانهم ومشاعرهم، ويعتبرون البكاء ضعفاً وينتقص من الرجولة والوقار والهيبة. فيجب علينا بعد اكتشاف كل هذه الفوائد العظيمة للبكاء والدموع ألا نكبت مشاعرنا، فالله لم يخلق الدموع والبكاء عبثاً وهباءً أو للكتمان والتخزين.

فهي — مع كونها أعظم مطهر وأقوى منظف للصدور من الأحزان والأدران — شفاء للمُعَذَّبين. وكما يقال: #واطلقها تبكي نين تمل تحود غل وظلم معشش ماحول — أطلقها تبكي

ويقول بو هنيه (باللهجة البدوية): #امغير أذرفي يا عين مَالخاطر غمامه — تحولي (أي: لماذا لا أذرف الدموع يا عين، فالخاطر كالغمامة — تحولّي أي انهمري)

وإن شاء الله ربنا يسعدنا جميعاً، ويبعد عنا الأحزان والأدران والظلم وغلبة الدين (أي الدَّين) وقهر الرجال.

في الصميم

إن بعض الظن إثم

ابتعدوا عن سوء الظن أو الشك

قال الله تعالى: «اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ»، صدق الله العظيم.

يعني إحنا لازم نكون حذرين من سوء الظن، لأنه ممكن يسبب ضررًا كبيرًا لنا ولغيرنا. بدل ما نحكم على الناس بالظن، ممكن نسأل ونفهم قبل ما نحكم.

هذه قصة حقيقية نتعلم ونتدبر منها ..

أ. حسني جرامون

من شهر كنت في زيارة خاطفة لمدينة العامرية، ركب معانا ولد وبنت وأخدوا الكرسي الأخير. والولد قال إنه مش عايز حد جنبهم، وإنه هيحاسب عليه.

· بعد ما العربية حملت وطلعت من الموقف واتحركت، الولد حط إيده على كتف البنت وشدها عليه، وراح حاطط راسها على كتفه.
· السواق شكله كان مركز معاهم من الأول، فقاله: «لو سمحت يا أستاذ، شيل إيدك من على كتفها وخليها تتعدل».
· الولد قاله: «معلش هي تعبانة، ولسه راجعين من عند الدكتور، ودايخة ومش هتعرف تقعد عدل».
· السواق ساعتها قاله: «بقولك إيه يا كابتن؟ كلكوا بتقولوا كده. يا تتعدلوا، يا تتفضل تنزل. بلاش قرف، شباب زي الزفت كله».
· واضح صراحة إن الولد كان مؤدب وبيتكلم بأسلوب كويس. والبعض من الناس في الميكروباص بدأ كل واحد يطلع بكلمة شكل ويتهمجوا على الولد والبنت.
· قالهم: «يا جماعة دي أختي والله العظيم، ولسه راجعين من عند الدكتور، وهي فعلاً تعبانة ودايخة، لا أكثر ولا أقل». لكن محدش كان مصدقه.

لحد ما طلع ليهم البطاقة بتاعته وبتاعتها، وواحد شافهم فعلاً طلعوا أخوات. والناس اللي في العربية اللي كانوا ظايطين في الظيطة اتكتموا، والسواق اعتذر له. قاله: «أنا آسف يا أستاذ، بس أنت شايف الدنيا، وأنت شباب وفاهم، الهرم أصبح مقلوب».

الولد صراحة كان مؤدب جدًا قبل اعتذار السواق، وخلاص سكت، ولكن الحزن مسيطر عليه، لكنه مشغول بمرض أخته.

فكرني بموقف كان بيحكيه الشيخ الشعراوي حصل معاه في آخر عمره، كانوا مستضيفينه في برنامج تليفزيوني. سمعت المذيع بيقوله: إيه الموقف اللي أثر في الشعراوي ومايقدرش ينساه؟

قاله: «وأنا صغير كنت بحب عمتي وعيالها. وفي يوم في نهار رمضان، شوفت بنت عمتي الكبيرة واقفة بتشرب مية. استحقرتها وتجاهلتها، لا بقيت أقولها إزيك، ولا بقي بيني وبينها أي كلام، كأنها مش موجودة. لكن أمي لاحظت إني مابكلمهاش،

قالتي: يا واد أنت مابتكلمش بنت عمتك ليه؟ قولتها: علشان عملت كذا وكذا. لقيت أمي بتضحك، قولتلها: بتضحكي على إيه؟ قالّتلي: يابني أنت درست لحد فين في الفقه؟ قالها: لحد كذا وكذا. قالّتله: يابني البنت لما بتكبر بيجليها ظروف تمنعها عن الصوم وعن الصلاة بأمر من ربنا، وبنت عمتك كبرت مابقتش صغيرة!»

الشيخ الشعراوي بيقول: «زعلت من نفسي، ومن يومها عمري ما أخدت الأمور بظواهرها، وبقيت دايماً أقدم الأعذار للناس وأحسن الظن بيهم قبل أي حاجة».

الإمام الشافعي مرة راح لشيخه، وقاله إنه مابقاش قادر يقوم الليل، بقي يكسل عن الصلاة بالليل. فشيخه قاله: «أنت رجل قد قيدتك ذنوبك»، خبر مش باين. الإمام الشافعي: ربنا بيعاقبه بعدم قيام الليل عشان ذنوبه. بيقول: «قعدت أسبوع أفتكر إيه الذنب العظيم أوي اللي أنا عملته أتعاقب بسببه العقاب ده، لحد ما افتكر إني شفت شاب في المسجد بيصلي ومتأثر أوي وعمال يعيط، فقلت بيني وبين نفسي: كده إنه بيعمل كدا رياء، ما كان يعمل دا في بيته. يقول: إني اتحرمت من قيام الليل عشان أسأت الظن بواحد كان بيصلي، وقلت عليه إنه مش بيعيط من قلبه، وإن دا مش خشوع».

تخيل إن سوء الظن دا ذنب عظيم جدًا، ممكن يحرمك من صلاة أو صيام أو بر والدين أو حتى صلة رحم. دا غير إنه بيفسد العلاقات وبياكل الود والمحبة.

المحبة: إني أعذرك. أقول: أكيد حجته معاه. احتمال أتأخر في الرد على الشات بتاعك لأنه ماشفهوش، أو مش قادر أتواصل مع حد دلوقتي وماقصدش يطنشني. لو حد عدى عليك من غير ما يرمي عليك السلام، اعذره: يمكن ماشافكش. ولو حد عينه جت في عينك وماكلمكش، قول: أكيد في مسألة شاغله دماغه وواخده عقله، أكيد سرحان وماقصدش. ممكن حد مايردش على موبايلك لأنه عامل تليفونه صامت، ماشافهوش أو ما أخدش باله منه. لو ما عزمكش على خطوبته أو فرحه أو أي مناسبة خاصة بيه، قول: أكيد راحت عن باله،

واحنا عارفين دوشة الفرحه وكدا، وغالبًا هتكون دي الحقيقة.
ممكن تكون اتخطبت لأنها مضغوطة عليها، مش لأنها باعتك واشترت الأحسن منك في نظرها، ولا شرط يكون غني ومريش. أنت عارف كام واحد اتكره بسبب فكرة وحشة، مجرد فكرة بدون دليل؟ بين. عارف كام مليون واحد وواحدة عايشين ضحية سوء الظن، محدش بيعذرهم ويقول: أكيد ليهم أسبابهم الخاصة؟
إن بعض الظن إثم. ماتسيبش نفسك لشيطانك وسوء ظنك: دي عملت كذا عشان تغيظني، دا عمل كذا عشان مابيحبنيش، دي ماشية مع فلان، دا بيكلم فلانة. كل موقف لو سمعته من صاحبه هتلاقي ليه قصة غير اللي في دماغك. ولو سمعته من أكتر من حد هتلاقي ليه أكتر من حد هتلاقي ليه أكتر من قصة، مش قصة واحدة، لأن كل واحد له قصته.

لو مسكت موبايلك وجيت تصور حد صورة، لازم تستنى شوية عشان الصورة متبقاش منغمشة. حتى لو بتصور نفسك مبتعرفش تظبطها من أول مرة، يبقى إزاي تاخد صورة لحد من أول لقطة من غير ما تستنى أما الشكل يوضح قدامك وتتأكد إنها مش مهزوزة، وإن دي جودتها الأصلية؟

ماتبنيش أفكارك على مواقف أخرين. مش معنى إنك شوفت أو سمعت، يبقى كل حد هيتحط في نفس الموقف هيعمل كده. صوابع إيدك مش شكل بعضها. حسن الظن عبادة عليها حسنات، مش فضل منك. سوء الظن ذنب عظيم، وربنا نهى عنه في القرآن.

أحسن الظن بيا لو قصرت. أحسن الظن بيا لو شفتني في موقف مش حلو. أحد الصالحين قال إنه لو شاف ذقن أخيه بتنقط خمرة، هقول: أكيد هي اللي وقعت عليها.

سيدنا جعفر بن محمد قال: «التمس لأخيك عذرًا». فإن كان له العذر، طيب. ولو ماكانش له عذر؟ قال: فالتمس له سبعين عذرًا.

زي ما بيقولوا: الغايب حجته معاه. استنى اسمع واتأكد قبل ما تصدر حكمك على حد. أحسنوا الظن ببعضكم، فإن سوء الظن إثم كبير.



د. خالد سليمان الزغيبي

أبو عبعاب

الرقم الصعب في الفن البدوي السكندري

كان الشيخ الصديق أبو عُبْعَاب ظاهرة فريدة في الفن البدوي الإسكندري، ولا مبالغة في القول إنه لم يسبقه أحد إلى تلك التوليفة الفنية التي لاقت قبولًا حسنًا لدى القبائل البدوية عمومًا، وقبائل الساحل الشمالي الغربي لمصر؛ ذلك أنه استطاع أن يُحدِث ما يشبه الزواج المبارك بين أجناس عديدة من الفن، كانت قبل أن تلتقي تحت بيته المتواضع في وادي القمر لا تربطها ببعض أي روابط.

من جهة، يُحيلك الشيخ صديق إلى جلسات السمر البدوية حيث التباريز الرائع للمواهب، من أغاني العَلَم إلى ضمّة القشة، إلى الطَّبيلة، إلى الأهزوجة، وصولًا إلى خَرَارِيف الجدّات. ومن جهةٍ أخرى، يُحيلك إلى فنون الساحل الشرقي لمصر — السويس والإسماعيلية وبورسعيد — حيث يكون لآلة السمسمية الكلمة الأهم في بثّ الحركة في الأقدام، ويُحيلك كذلك إلى مجلس الحكواتي الذي لا يروي حكايته فقط بل يغنيها كي ترسخ في ضمائر المستمعين وتصبح جزءًا من نسيج أحلامهم. ويُحيلك أيضًا إلى طبيعة إقليم مريوط الذي يمثِّل نقطة التماس العجيبة بين شعر الصحراء وشعر المدينة، حيث تتصافح الرمال مع رذاذ البحر في منطقة لا أحد يستطيع أن يحسم فيها إن كانت بدوية أم مدنية، بل الاثنين معًا في آن واحد. ويُحيلك أخيرًا إلى حلقات الذكر حيث تُرتَّل التسابيح على القلوب المطمئنة.

هذه التوليفة الفنية العجيبة هي ما أمكن لأبي عُبْعَاب بموجبها، وبواسطة أدائه المتميز الذي لا يشبه أحدًا قبله ولا أحدًا بعده، أن يُشكِّل تلك الظاهرة التي لا تزال ترددها الألسن وتطرب لها الآذان. ولئن كانت أم كلثوم في الغناء المصري والعربي تمثِّل القمة التي لا تُسامَى، فقد كان الشيخ الصديق أبو عُبْعَاب في الفن البدوي السكندري يمثِّل تلك القمة نفسها، ولكن على أرض مختلفة تمام الاختلاف: لا على خشبة المسرح، ولا أمام أوركسترا، ولا بحضور الرؤساء والملوك، بل بسمسميته على رمال مريوط والإسكندرية، تحت ضوء النجوم المتوهجة، أمام جمهور من البدو لا يحملون تذاكر ولا يرتدون ربطة عنق، لكنهم يحملون قلوبًا تعرف متى

تنكسر ومتى تتعافى. ومثلما كانت أم كلثوم تغني وتُشْجِي الملوك والأرستقراطيين والعامة، وتجعل السامع من أقصى الخليج إلى أقصى المغرب يحفظ كلماتها عن ظهر قلب، كان أبو عُبْعَاب يغني فيُشْجِي الرجال تحت الخيام، ويظل لحنه يتردّد في الأجيال حتى أن من لم يسمعه يحنّ إليه كأنه سمعه.

وقد كان ذلك العرس الذي جمع عمي إدريس — رحمة الله عليه — الشاعر البدوي بالشيخ صديق، هو عرس والدي حين كنتُ لما أزل في عوالم الغيب. حيث ردّد عمي — رحمة الله عليه — هذه الحكاية على مسامعي أكثر من مرة حتى صِرْتُ كأني كنت معهم في عرس أبي.

فالحكاية البدوية حين تُروى بصدق، تخلق في السامع ذاكرة لم يعشها، وهذه من خصائص الكلمة إذا قيلت كما يقولها من شهد واستشهد.

يقول عمي إدريس: "استمر السمر أيامًا لا أعرف كم عددها بدقة، لأن زمن الفرح لا يُقاس بالساعات بل بكمية الشاهي التي تُسْتَلَك، وعدد الخرفان التي تُذبح". قال لي عمي إدريس: "في كل ليلة كان الشيخ صديق يأتينا بوجه جديد من توليفته الفنية، حتى إذا بلغت الأيام ذروتها ختمها — كما يُسمونها — بالحفلة العامة، حيث يلتئم الجميع في ذلك اليوم الذي يُشهِرُه أهل العرس في حضرة ذلك الرجل الذي أفقده الله بصره ليبصرنا جميعًا".

ويا للعجب! أن تعلم أن أبا عُبْعَاب — كما ينطقه بدو الساحل الشمالي الغربي — يعني الهُدْهُد، ذلك الطائر الذي ذكره الله في كتابه الكريم، والذي كان يأتي النبي سليمان بن داود بأخبار سبأ. طائر الحكمة والغيب والماء المخبوء تحت الأرض، والذي يميزه عن سائر الطير تاجه الشاهق على رأسه كأنه تاج ملك صغير لا يعرف أنه ملك. وكأن اسم الشيخ نفسه كان هو نبوءة الصحراء بما سيكون؛ فهو الهدهد الذي يرى بعينيه المفقودتين ما لا يراه المبصرون، والذي يُرسل حنينه إلى الحاضرين بذات بحّة الناقة حين تحنّ إلى حوارها المحجور عنها.

كان عمي إدريس شاعرًا مجادلًا يميل إلى كثرة الأسئلة وقت السمر، بينما كان الشيخ صديق أبو عُبْعَاب، الهدهد البشري، لا يجيب بالكلام بقدر ما يجيب بنبرة الأهزوجة وبنشوة غنوة العَلَم، وهدوء حلقة الذكر. رأى عمي كيف يتحلّق الرجال في هلال حول أبي عُبْعَاب، وكيف يبدأ الشيخ بتلك النبرة الحزينة التي لا تفارقه أبدًا، نبرة الفقد الكبير، ذلك الفقد الذي جعل صوته لا يشبه صوت مبصر قط. كأن عينيه المطفأتين انتقلتا إلى حلقه، فصار كل ما تغنّى به مرئيًا لا مسموعًا فقط؛ كأنك ترى الصحراء وهي لا ترى، كأنك ترى الناقة التي تحنّ وحوارها وهي تعلم أن حوارها لن يعود.

كان الزعتر البري يُفْرَك بين الكفين ثم يُلقى في الشاي المغلي فيعطيه مرارة أولى وحلاوة آجلة، وكان العرف البدوي المتسامح الذي لا يحاسب صاحبه على ما يستنشق في الهواء المفتوح، لأن العرف عند بدو الإسكندرية ليس سجنًا بل مرعى واسع. وقد كان الشيخ صديق نفسه يترك الشأن لمن يشاء أن يستنشق أبخرة الليل المشحونة بالزعتر وروائح أخرى.

لم يكن عمي إدريس راضيًا تمامًا عن بعض الأمور؛ فهو شاعر يجادل لأنه يبحث عن حقيقة لا تنتهي. جادل الشيخ في موضع الغناء: لماذا الساحل وليس الداخل؟ جادل في اختلاط الأجناس الفنية: أيليق غنوة العَلَم أن تصادق السمسمية؟ وهل يمكن أن يمر الليل بدون البخور الهندي؟ جادل في مدة السمر: أيام كاملة ونحن في عرس ومقيمون على الطرب كأن لا صلاة ولا عمل ولا استيقاظ في الصباح. وكلما جادل عمي إدريس، كان الشيخ صديق يرد عليه بنبرة لا تحتمل الرد، بابتسامة البصير التي لا يراها غير المبصرين، بعبارته الشهيرة تلك التي ردّدها ليلة الحفلة العامة بعد أن ختم العرس. قال لعمي وصوته يرتعش مع آخر نغمة في أهزوجته: "يا بو صالح: احجر دواه يرعى فيه العقل صاف يا لاعِميني". قال الشيخ صديق لعمي: "الناقة لا تجادل حنينها يا بو صالح؛ الناقة تحنّ، وكل الحجج لا تساوي نبرة واحدة صادقة". عندها سكت عمي، ليس لأنه اقتنع بل لأنه شعر لأول

مرة أنه أمام ظاهرة لا تخضع لجدل شاعر مثله. قال لي عمي إدريس: "اكتشفت أني أمام توليفة فنية أشبه ما تكون إلى عقدة الجرد البدوي لا يستوي تعديل الهندام بدونها". سكت الشاعر إدريس بو صالح أمام الهدهد الذي أخبر سليمان بما لا تستطيع الجيوش أن تخبره.

بعد أيام العرس، حين فرغ الرجال ورجعت النوق إلى حلبها الصباحي، قال عمي إدريس لأبي في حوار لا أدري كيف وصل إلى ذاكرتي: "إن أبا عُبْعَاب ليس لونًا من الفنون، إنه الفن كله في رجل واحد. ومثلما أن أم كلثوم حين تغني تغني مصر كلها، فأبو عُبْعَاب حين يغني تغني الصحراء كلها، بل تغني البداوة التي لا تموت لأنها تحنّ".

والآن، وأنا في سن لم تعد تحتمل التصحيح، وأكتب هذه السطور بخط لو كان أبو عُبْعَاب حيًا لسخر منه، ولكنه كان سيُغْمِض عينيه المفقودتين ويبتسم. أقول لكم: إن الظاهرة الفنية التي تجسّدت في صديق أبي عُبْعَاب ليست تفسيرًا ولا تحليلًا، بل هي حقيقة تتكشّف. فكلما كبرت سني، كلما حننتُ إلى الديار، فأذهب مباشرة إلى "وين الغالي يا دار"، وكلما يممت وجهي شطر الإسكندرية يلتقط راداري موجات "عقلي مو حَدّة"، وكلما آلمني كلام أحدهم أردد: "عيبيك لمن نشكيه... خطيت يا مشاكي مواجعي".

أيها الأفاضل: إن النبرة الحزينة التي لا تكن تفارق هذا الرجل لم تكن نبرة باكٍ على ما ذهب، بل نبرة عاشق للآتي. فالحنين — أيها السادة — هو اللغة الوحيدة التي يفهمها البدو.

السؤال الذي تركته لعمي إدريس بعد أن روى لي عن جدالهما الطويل، والذي لم يُجِب عليه أحد ولا حتى أنا إلى الآن في عمري الطويل الذي تجاوز عقده السادس، هو: هل كان أبو عُبْعَاب يغني الحزن لأنه فقد عينيه، أم لأنه كان يرى بعينيه المفقودتين شيئًا لا نراه نحن المبصرون؟

مجلة كل العرب
هلنا
العدد ٣٥ - مايو ٢٠٣٥

سكندريات



عيد وحيدم

عجبت لك يا زمن

رئيس التحرير

عجبتُ لك يا زمن... جملة كانت تتردّد كثيراً في أفلامنا القديمة. ومن عجائب هذا الزمن ما يردّده الكثيرون من نوعيات بشرية لم يُسمع لها صوتٌ قبل اليوم. انطلقت الألسنة بكلام لا يتّفق وأخلاق مصر.. بل توقّف اللسان داخل فم البعض تاركاً الكلمة تخرج بسرعة الصاروخ دون قيود أو انضباط. فأجيال مضت، وأجيال حاضرة، ويليها أجيال قادمة. ولكني أقف عند جيلنا الحاضر الذي لا يُعجبه العجب.

إنْ إنجازاً تقوم به الدولة ومؤسساتها رغم العوائق والتحديات، نجد من يقفون بالمرصاد لهذا الإنجاز، محلّلين ومفتّتين هذا المنتج إلى فتات حتى وهو في لبنته الأولى، غير عابئين بنتائج هذا التفتيت. النظام الرئاسي متوحّد مع الجيش وقيادته، وهنا تُضرَب أسافين الدمار والفرقة من المغرِضين الذين لا يهمّهم بالدرجة الأولى سوى مصالحهم الشخصية. يديرون مؤامراتهم وهم على كراسي ناعمة، ومن فنادق أكثر النجوم عدداً، وبأموال تتدفّق عليهم من دول تأوي عناصر لا يتوافق فكرها مع فكر مصر الحالي.

كما يُتلاحظ كثرة تلك المظاهرات التي تأوي بين طياتها أفكاراً متنوعة واتجاهات تتلاطم ببعضها البعض لتفكيك الكتلة المصرية المتوحّدة. ولكن الرمز الوطني المصري وشعب مصر العظيم متيقّظ تماماً لكل تآمر يُحاولون إحاقته بالهوية المصرية.

إن استراتيجية القيادة المصرية القائمة على تعديل مسار الخريطة السابقة إلى مسارها الصحيح لهو عين الصواب، حتى لا تقع البلاد في حرب طائفية لا يعلم مداها إلا الله. فمصر رمز العروبة، وهي القلب النابض للأمة العربية.

فيَا أجناد الأرض، وخَيْرَ جُنودها، ويا شباب مصر وعقلاءها، ويا نساء مصر وأطفالها، ويا شيوخ مصر ورجالها، ارفعوا راية الحرية والمساواة والعدالة، حفاظاً على تراثنا التاريخي، لتحفظ مصر. يحفظكم الله.



مجلة كل العرب
هلنا
العدد ٣٠- مايو ٢٠٣٥

د.م. إبراهيم شعبان

تسريبات من مقر ابليس (٣)



استقالة إبليس

قرر إبليس بعد اعتكافه اربعون يوما في برجه العاجي الجميل المنصوب فوق قصره العظيم الذي أمر ببناءه يوم طرد من الجنه علي أن يكون علي جبل الياقوت ومن الزمرد الخالص ومطعما بالذهب واللألئ ومجهزا بغرف الاستقبال والاجتماعات من اخشاب الورد والبلوط والعود لاجتماعه مع ارازل الشياطين و المقربيين من ابناءه وكذا أربعة الاف من غرف النوم بازهي الالوان وارقي الحرير وذلك لكل زوجة غرفه لإنه لاينام ليلا بل ينشغل مع زوجاته الأربعة الاف كل ليله أما السرائر فلهن يوم كل آخر شهر جميعا ...

ترك إبليس كل ذلك وصعد إلي برجه المنيع يفكر كيف يتنحي أو يستقيل وماذا سيصنع ويكسب قوت عيشه وهو أمر ليس بالهين علي إبليس لإنه لم يقم بعمل بشري من قبل ولم يعرف كيف يكسب عيشه لإنه كان يأتيه قوته وقوت أولاده وحاشيته من السماء مباشرة ولكن كيف الحال إذا استقال واناب وتاب وتنحي سوف يغلق باب السماء وليس إمامه إلا أرزاق الارض

تسريبات من مقر ابليس

علمت الشياطين والابالسة بعزمه علي الاستقالة أو التنحي فخرجت أفواجا أفواجا منهم علي بكرة ابيهم من منهم فوق الارض أو تحتها ومن منهم في أبراج السماء وحراس الكواكب بهتافات راقت له لكنه لن يستجيب لها رغم الاستجداء مثل (أحييه أحييه متسيبناش يابيه) و(احا احا لا تتنحي) و(إبليس إبليس متسيبناش قراطيس).. فخرج إليهم واعدا إنها تجربة إن نجحت سيستقدمهم جميعا للعمل معه علي ارض المحروسة وإن فشلت فسيعود إليهم (وأني قد قدمت استقالتي علي هذا الشرط وقد من الله علي بقبوله وأرسل إلي رسولا قال لي لقد قبلت الاستقالة والشروط كلها وهذه رسالة السماء إليك فاقرأها إن شئت . فبادرته بالقبول وأقول ما أنا بقارئ . فرد علي الفورا (حطها تحت المخده هتعوزها بعدين) ثم انصرف وأنا ارتعش من الخضة.. واردف قائلا .. ابنائي وعشيرتي دعوني وشأني اليوم..لنبدء التجربه..... .

عطارة إبليس

إبليس توكل علي الحي الذي لا يموت ونزل إلي الارض واختار سوق العطارين مرتديا جلباب ابيض تعلوه عباءة جوخ أصلي سوداء اللون وفوقها عمامة بيضاء وأمسك بسبحة مائة حبه وكتب علي المحل (عطارة الحاج درويش) وتحتها عبارة (المن أراد إن يستقيم) وأبرز في صدر المحل لوحة من الذهب الخالص عليها عبارة (هذا من فضل ربي)... هكذا وصنع كافة احتياجات المحل من إدراج واجولة وصناديق وارفف وكتب عليها مايدل علي محتواها... (الضمير الحي)... (الاخلاق)... - (الاستقامه).... (الأمانة).... (الرحمة)....(التاعطف)...(الود)....(الصدق).... (المال الحلال)... ثم أطلق البخور ومعه عامل كبير السن وقور.. وجلس ينتظر الزبائن وكلما سأله أحد أو واحدة يقول لهم ليس عندي إلا ماهو مكتوب علي الارفف فيفرون منه ضاحكين ومستهزئين به ومنهم من يؤنبه علي ذلك. مضي أسبوع ولم يحصل علي زبون واحد.

قرر أن يغير بضاعة المحل ولتاتي علي هوي الزبائن فملاء ليلا الصناديق ببضائع أخري وكتب علي المحل (عطارة الحاج إبليس).. ولغي لافتة لمن أراد إن يستقيم وكتب علي الاجولة والصناديق ما بها.. مثل (حبة البركة لكل داء)... (كن رجلا بحق)... (بول البعير)... (حجر النار للراجل المختار).... و... و... و.. وجعل عاملة أنيقة نصف عارية تساعده.. كان هذا ليلا دون أن يراه أحد حتي إذا ما جاء الصباح وفتح المحل واذا بالزبائن من كل عمر رجالا ونساءا يطلبون طلباتهم مبتسمين له و مشجعين ومنهم من شكره علي اسم عطارة إبليس.. وزوق الأنسة وحسن اختيار... مضي أسبوعا ولم يكن ليستطيع عد الأموال التي كسبها فاطمئن لسير التجربة... هنا ومن حي العطارين ومن تجربة المحل مرتين أدرك يقينا أن الناس لها ماتبطن في نفسها مالا تعلنه وأنهم جميعا من سلالة قابيل

وما كان من مكسب عظيم دفعه دفعا إلي رفع الأسعار وجلب بضائع أخري وفتح بجوار المحل سكنا خاصا أعلن عنه أنه يجلب الحبيب ويفك سحر المربوط ويجلب الأرزاق والمال ويضرب الضرة بالطرة وللنساء الحبل..... جذب الية عشرات بل مئات صنع لهم الاحجبة ومارس ما مارسه معهن لمن تأخر حملها... وإذا بمندوب السماء يأتيه علي غير موعد وهو في وضع مشين مع أحدي الزبائن ارادت الحمل السريع :

المندوب : إنت قرأت المكتوب الشرط إللي ادتهولك وقلت ما أنا بقارئ.

إبليس : لسه تحت المخده وملقيتش حد يقراه ليا

المندوب : تحب اقولك فيه إيه....

إبليس : يعني موش مهم قوي..

المندوب : فيه إن التجربة دي موش هزار... ستعود إلي عملك فور إحساسك بمتعة المعصية والنصب والاحتيال....والمكسب...

المعصية ليها طعم واشكال الناس متغركش..... كلهم فيهم نزعة الرغبة في المعصية إللي بيتقي الله هو فقط إللي مجتلوش الفرصة....... كلهم من نسل قابيل........ هابيل مخلفش حد...

عد إلي عملك أيها الابليس فلن تزيدهم شيئا.....

فبكي إبليس واستغفر الله وذهب قبل أن يستلم العمل من جديد لاداء عمرة العشرة الاواخر من رمضان...

مجلة كل العرب
هلنا
العدد ٣٥ - مايو ٢٠٣٥

حكايات لا تؤجل

فريحة المريمي

حين يكون الوطن نبضاً لا يُساوَم

في زحمةِ الأيامِ، حين تتشابه الوجوه وتضيع التفاصيل الصغيرة بين ضجيج الحياة، يبقى الوطن هو الحكاية الوحيدة التي لا تُؤجَّل، ولا تُنسى.

الوطن ليس رقعة جغرافية تُرسم على خارطة، ولا نشيداً يُردَّد في المناسبات، بل هو ذلك الشعور الخفي الذي يسكننا دون استئذان، ويوقظ فينا الحنين كلما ابتعدنا، ويغرس في أرواحنا الطمأنينة كلما اقتربنا.

هو الأم حين تفتح ذراعيها رغم التعب، وهو الأب حين يبتسم رغم قسوة الأيام، وهو الذاكرة التي لا تشيخ مهما طال بها الزمن.

نحب الوطن لأن فيه أول ضحكة، وأول دمعة، وأول خطوة مشيناها بقلوب خائفة وأحلام كبيرة.



نحب الوطن لأنه يحتفظ بأصوات من رحلوا، ويُخبئ في ترابه حكاياتهم، ويعيدهم إلينا كلما مررنا بأماكنهم.
في كل شارع قصة، وفي كل بيت ذكرى، وفي كل زاوية حنين لا ينتهي.
لكن حب الوطن ليس كلمات تُقال، ولا شعارات تُرفع، بل موقف حين يشتد الخلاف، وصبر حين تضيق الأحوال، وإيمان لا يتزعزع بأن الغد يمكن أن يكون أجمل.
هو أن نختلف دون أن ننكسر، وأن نحلم دون أن نفقد الطريق، وأن نُصلح ما أفسدته الأيام بدل أن نلعنه.
الوطن لا يحتاج إلى من يُغنيه، بل إلى من يحميه من اليأس، من يحفظ كرامته في حضوره وغيابه، من يزرع فيه الأمل حتى وإن جفَّت الأرض.
فالوطن الذي نحبه لا يُبنى بالكلام، بل يُبنى بالقلوب التي تؤمن به، وبالأيدي التي تعمل لأجله، وبالصدق الذي لا يعرف المساومة.
وحين نسأل أنفسنا: لماذا نحب الوطن؟
قد لا نجد إجابة واضحة، لأن بعض المشاعر أكبر من أن تُفسَّر.
لكننا ندرك يقيناً أن الوطن ليس خياراً، بل قدرٌ جميل نحمله في داخلنا أينما ذهبنا.
وفي هذا الركن، حيث الحكايات لا تُؤجَّل، نكتب عن الوطن لأننا نخاف عليه من النسيان، ونحبه لأنه باقٍ فينا، حتى لو تغير كل شيء من حولنا.



مجلة كل العرب
هلنا
العدد ٣٥ - مايو ٢٠٣٥



الخراريف وحكايا النجع

في الأدب الشعبي الليبي

أ.د. إبراهيم العايش

إذا كان الأدب مرآة الشعوب، فإن الأدب الشعبي هو نبضها النابض بالحياة، وصوتها الذي لا يُصادر، وذاكرتها التي لا تموت. في ليبيا، ذلك البلد الممتد على ساحل البحر المتوسط، والذي تغلب عليه الصحراء الشاسعة، يحمل الأدب الشعبي خصوصية فريدة؛ فهو لم يكن مجرد تسلية أو ترفيه، بل كان ديوان العرب الليبيين، وسجل مقاومتهم، وملاذ أحلامهم. قبل أن تنتشر المدارس وتُطبع الكتب، كانت الخيمة مكانًا للتعلم، وكان السمر حول النار جامعة مفتوحة، وكان الراوي العجوز أول معلم في حياة الليبيين. هذا المقال هو محاولة للإبحار في تاريخ الأدب الشعبي الليبي، ذلك البحر العميق بأسراره وحكاياته، بدءًا من جذوره في التراث الشفوي، مرورًا بأدواره الوطنية والنضالية، وصولاً إلى واقعه المعاصر الذي يسعى للانبعاث من جديد.

أولاً: الجذور العميقة؛ الأدب الشعبي بين الذاكرة والهوية

يُعد الأدب الشعبي الليبي امتدادًا لحضارة شفوية ضاربة في القدم، حيث كانت القبائل البدوية، التي شكلت النسيج الاجتماعي الأكبر، تعتمد على اللغة المحكية كوعاء لحفظ تاريخها وقيمها وأساطيرها. وفي هذا السياق، يبرز مصطلح "الخراريف" كأحد أهم مفردات هذا التراث. ف"الخرّيفة" (مفرد خراريف) هي الحكاية الشعبية التي تروى غالبًا على ألسنة الجدّات، حيث تختلط فيها الواقعية بالخيال، وتؤنسن فيها الحيوانات لتُصبح شخصيات ناطقة تحمل الحِكم والعبر. هذه الحكايات لم تكن مجرد قصص للأطفال، بل كانت مستودعًا للحكمة البدوية، تُعَلّم الصبر والشجاعة والكرم، وتُحذّر من الغدر والخيانة.

كما شكل الشعر العامي (الزجل) عمود الأدب الشعبي الليبي الفقري، حيث تميزت ليبيا، وخصوصًا شرقها (برقة)، بقوة اللغة العربية الفصحى في لهجتها

الدارجة، مما جعل شعرها العامي أقرب إلى الفصيح وأكثر جزالة . هذا القرب من الفصحى منح الشعر العامي الليبي قدرة على التعبير عن أرقى المعاني، ومكنه من لعب دور تاريخي كبير في توجيه المجتمع وتخليد ذاكرته الجماعية . لم يقتصر الإبداع على الشعر والحكايات فحسب، بل شمل أيضًا الأمثال الشعبية (الأقوال) التي تختصر تجارب الحياة في عبارات قليلة مكثفة، والألغاز (الأحاجي) التي تُشحذ الذهن، والأهازيج المصاحبة للأعمال (كدأغاني السانية والزراعة) التي كانت تُخفف وطأة العمل وتُنظم إيقاع الحياة اليومية .

ثانياً: صوت المقاومة؛ عندما تحول الكلمة إلى بندقية

مع مطلع القرن العشرين، وتحولت ليبيا إلى ساحة استعمار شرس بقيادة الاحتلال الإيطالي (1911-1943)، تحول الأدب الشعبي من كونه وعاءً للثقافة والحكمة إلى سلاح للمقاومة والتحدي. ففي غياب الإعلام الحديث، كانت القصائد العامية تنتشر بسرعة البرق بين القبائل، تحرض على الجهاد، وتخلد بطولات الشهداء، وتستنهض الهمم. كان الشعراء المجهولون وأصحاب البلاغة الفطرية هم ألسنة المقاومة، يصفون بطش العدو، ويحثون على الصمود، ويبكون المدن التي سقطت .

تعد "أغاني الجهاد" نموذجًا صارخًا على هذا الدور؛ حيث شكلت هذه الأشعار سجلاً تاريخيًا موازيًا للمذكرات الرسمية، بل وأكثر صدقًا وعاطفة، لأنها صدرت عن قلب الجريح والمعذب. لقد صورت هذه الأشعار معاناة الليبيين في المعتقلات التي أقامها الإيطاليون، وسخرت من فشل الغزو تارة، وتوقعت النصر تارة أخرى . لقد صنع الأدب الشعبي في تلك الفترة "ذاكرة بديلة" لم تشأ السلطات الاستعمارية تسجيلها،

وظل حيًّا على الألسن، ينتقل من الأب إلى الابن، كي لا تُنسى التضحيات.

ثالثاً: عصر المدونة والتحديث؛ من الشفاهة إلى الصفحة المطبوعة

شهدت فترة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي تحولًا جذريًا في مسار الأدب الشعبي الليبي، حيث بدأ الاهتمام الأكاديمي والمؤسسي بجمع هذا التراث وتوثيقه، خشية اندثاره مع تغير أنماط الحياة ودخول الحداثة. فبعد الاستقلال واكتشاف النفط، تسارعت عملية التحضر، وبدأت الخيام تتحول إلى منازل إسمنتية، وبدأت وسائل الإعلام المسموعة والمرئية تلتهم وقت السمر الذي كان يُروى فيه التراث .

شهدت هذه الفترة ظهور جهود فردية ورسمية لجمع "الخراريف" و"الأقوال" و"الأهازيج"، وتدوينها في كتب . كما دخلت الأشكال الأدبية الشعبية إلى الجامعات كمادة تدرس ضمن كليات اللغة العربية .

رابعاً: عصر النهضة والهوية

بدأ المبدعون والباحثون، سواء داخل ليبيا أو في المهجر، في إعادة اكتشاف الموروث الشعبي باعتباره ملاذًا للهوية في خضم الانقسامات.

يُعد الروائي والأكاديمي "أحمد يوسف عقيلة" أحد أبرز الأسماء التي أسهمت في هذه النهضة، من خلال أعماله مثل "الجراب: حكاية نجع"، والتي وظف فيها الحكايات الشعبية (الخراريف) والتراث المحكي كأساس لبناء سردية روائية حديثة، تسبر أغوار الوجدان الليبي وتوثق حياة "النجع" (تجمعات البدو) . كما برز جيل جديد من الشعراء الشعبيين استخدموا وسائل التواصل الاجتماعي لنشر قصائدهم، متجاوزين بذلك رقابة المؤسسة التقليدية. تتنوع مواضيع هذا الشعر الجديد بين النستولوجيا للحياة البسيطة قبل النفط، والنقد اللاذع

للواقع السياسي والاجتماعي المعاصر، مما يؤكد أن هذا الفن لا يزال حيًا ونابضًا، وأن الجيل الجديد يعيد اختراع تراثه ليعبر عن همومه الخاصة.

في ختام هذه الرحلة، يتبين لنا أن الأدب الشعبي الليبي ليس مجرد متحف للكلمات القديمة، بل هو كائن حي يتنفس ويتطور. إنه ذاكرة الأمة ووعيها الجمعي، الذي سجل انتصاراتها وهزائمها، أفراحها وأتراحها. من "الخرّيفة" التي كانت ترويها الجدة المكفوفة البصر في ليالي الشتاء الطويلة، إلى "الجراب" الذي يملؤه الكاتب بالحكايا والأسرار، إلى القصيدة العامية التي تنشرها "فيسبوك" فتُحدث ضجة، ظل هذا الأدب مرآة صادقة للروح الليبية. إن الحفاظ على هذا التراث لا يعني الحنين إلى الماضي فقط، بل هو استثمار في المستقبل، وفهم أعمق لما يعنيه أن تكون ليبيًا في عالم يتغير بسرعة. فالذي لا جذور له، لا أغصان له، وفي زمن العواصف، تظل الجذور العميقة هي أضمن مكان للاحتماء.









الفصل الثالث عشر

من كتاب

الواحات المفقودة

للرحالة الجغرافي

أحمد حسنين باشا

الكتاب هو رحلة استكشافية محفوفة بالمخاطر في الصحراء المصرية الليبية

تقديم : عصمت ضيف الله الملهطاني

الكفرة - الأصدقاء القدماء - تغيير الرحلة

الفصل الثالث عشر

الأحد، ١ أبريل

قُمنا العاشرة إلا رُبعًا صباحًا، ووقفنا الثانية بعد الظهر، وقطعنا ١٧ كيلومترًا، ووصلنا «التاج». وفي الساعة الحادية عشرة والربع دخلنا أرضًا مُهشَّمة الصخور، كثيرة التعاريج، تغطيها أكوام من الخراسان الأسود والأحمر على طول الطريق إلى التاج.

وجاء «عقيلة» يساعدنا في تحميل الجمال، وكان قد أَبَلَّ من مرضه وعزم على السفر معنا إلى التاج. وأرسل أبو حليقة الفطور إليَّ وإلى رجالي، وأخذت عليه شدة اهتمامه بي، فأجاب على هذا: «أني حرمته حق ضيافته لنا مدة الثلاثة الأيام المألوفة». وبعد قليل جاءت جارية من بيته تحمل صحفة كبيرة من الأرز ودجاجًا وبيضًا، وقد ظهر لي أن سيدها ألبسها لباسًا خاصًّا لهذه المناسبة. فقد راقني ثوبها الرشيق ذو القماش الأزرق والنطاق الأحمر الملتفت حول خصرها النحيل.

وأخبرتها أنَّا مسافرون في التوِّ، وأنَّا لسنا في حاجة إلى الطعام، فقالت في خَفَرٍ: «ربما مُسَّت الحاجة إليه في الطريق، لقد طهيته بنفسي». فقلت لها: «إذا كان الأمر كذلك، فأنا أتقبله بكل سرور». فبَان عليها الفرح، ورجعت فأتتنا بصحفة أخرى لا تقل عن تلك حجمًا ولا تحريكًا للشهية. وشكرتُ لها لطفها، وزوَّدتها بشكري لسيدها الكريم.

وودَّعنا أهل «العوازل» توديعًا حارًّ ا، وتقدَّمتُ القافلة على جواد أبي حليقة، ولم نكن في حاجة إلى دليل لمعرفتي بالطريق، ولم تَفُتِ السنوسي أبا حسن ملاحظة ذلك؛ فقال: «إن البك يعرف الطريق حق المعرفة، ولا أحسبه إلا صائرًا دليلاً قادرًا في بلادنا».
والطريق إلى الكفرة من جهة الشمال فيه شيء من المفاجأة يجعله ممتعًا. فقد سرنا في أرض قليلة التعرج، يكتنفها مرتفع من الأرض قليل العلو كان لنا بمثابة الأفق،

ثم انقلب ذلك التل فجأة فأصبح طائفة من الأبنية، لا تكاد العين تميِّز عن بُعد فرقًا بين جدرانها وبين الصخور والرمال التي تماثلها تلك الأبنية لونًا وشكلًا. وكانت هذه المحلة مدينة «التاج» مركز الأسرة السنوسية في الكفرة.

ودخلنا المدينة فرأينا الأرض التي خلفنا قد هبطت فجأة في وادي الكفرة، وهو وادٍ بعيد الغور، يكاد يكون بيضاوي الشكل يبلغ أقصى قطريه ٤٠ كيلومترًا وأدناهما ٢٠ كيلومترًا، ويتناثر فيه النخيل، وتمتد فيه على شكل خط متعرج من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي القرى الست المعروفة بأسماء: بويمه، وبومه، والجوف، والزرق، والطلاليب، والطلاب.

وتقع بالقرب من الجوف بحيرة متوسطة الحجم زرقاء اللون متألقة الماء، هي في وسط تلك الرمال الموحشة عطية من عطايا اللّٰه،

فإن مياهها المنبسطة تبعث السرور إلى العين المتعبة من رؤية الرمل الدائم، ولكن مياه هذه البحيرة المالحة أشد غصة في حلق الظمآن من قَذَى السراب في عينه.

وقابلني عند دخول مدينة «التاج» أصحابي القدماء، وكان السيد العابد – ابن عم السيد إدريس وشيخ السنوسيين في الكفرة – مريضًا بالروماتيزم، فتفضَّل بإرسال تحياته إليَّ مع سيدي صالح البسكري القائمقام، والسيد محمود الجَدَّاوي وكيل السيد إدريس، وجمع من الإخوان.

وصحبني هؤلاء إلى منزل السيد إدريس الذي أُعدَّ لإقامتي، وكانت إقامتي في رحلتي الأولى إلى الكفرة منذ سنتين في نفس هذه الدار، فأحسست كأني في داري. وأراد السيد البسكري أن يمازحني، فقال: «علِّم يا بك رجالك دروب الكفرة؛ فإني لأحسبك أخبر بها منهم جميعًا، بما فيهم السيد الزروالي الذي لم يطأها منذ ١٣ سنة».

وبدأت دلائل الضيافة في الحال، فقدَّم لنا الشاي قائد الجند. ولم أكد أستريح قليلًا حتى جاءني أحد العبيد يدعوني إلى تناول الغداء في دار السيد العابد، وكان نفس الرسول الذي قادني منذ سنتين. فسرتُ معه في نفس الدروب، ودخلت نفس الدار العجيبة التي يقيم فيها قائد السنوسيين، وأنا أشعر كأني أعيش في عهدي الماضي، أو كأن العمر لم يتخطَّ بي السنين...

ودار السيد العابد ذات طرقات متعددة متوشِّحة، ملأى بأبواب الغرف التي يقيم فيها أفراد أسرته وحشمه. ودخلنا الغرفة المعهودة التي زاد زينتها عن قبل بما أُضيف إليها من السجاجيد الثمينة والوسادات ذات الألوان المزركشة، وقد عُلِّق على جدرانها تلك المجموعة من الساعات والبارومترات التي

يحب جمعها صاحب الدار، وكانت الساعات سائرة بدقة، وهي لا تقل عن اثنتي عشرة ساعة مختلفة الشكل والحجم.

وجاء السيد صالح يسامرني ويعتذر عن غياب السيد العابد القهري، ووُضِعت أمامي مائدة تصلح للملوك، وتُهيج شهية من قضى الأيام الطوال في الصحراء، وتنوَّعت فيها ألوان الطعام والحلوى، وخُتِمت بثلاثة أكواب من الشاي مُعطَّرة بالعنبر وماء الورد والنعناع.

وعدتُ إلى داري بعد انتهاء الوليمة، فلم أكد أتعهد حوائجي وأتحادث في أمر الجمال اللازمة للمرحلة الثانية، حتى جاءني عبد صحبني ثانية إلى منزل سيدي العابد لتناول العشاء. فاستقبلني السيد البسكري، ذلك الشيخ الوقور الرضيّ، في جبة ذهبية اللون، وكان قد خلع عن رأسه طربوش البدو الطريَّ، ولبس كوفية بيضاء من الحرير، وعقالاً اختلطت فيه الخضرة بلون ذهبي.

وبعد أن فرغنا من تناول الطعام، أُديرت أكواب الشاي المعطَّر، وأُحرق البخور. وهنا بدأت ساعات الغرفة تدق أنغامًا مختلفة مؤذنة بحلول الساعة الثالثة من الزمن العربي، فأغمضت عيني لحظة وأحسست كأني في أكسفورد أسمع الدقات المتنوعة تنبعث من ساعات أبراج الكليات والكنائس.

وخرجت في ضوء القمر يغشاني عبق ماء الورد ويحيط بي نَشْرُ البخور، فعَلوْتُ التل المُشرف على مياه البحيرة، وذكرت زيارتي الأولى أيام كانت الكفرة غاية رحلتي السالفة، وفكرت في شأنها اليوم، وهي مبدأ القسم الشيِّق من رحلتي الثانية.

ووقفت أسمع أصوات الإخوان والطلبة ترتّل الحزب في سكون الليل، فطفر عبد الله من بين الظلال، ووقف إلى جانبي، ثم قال بصوت خافت عميق: «هذه ليلة النصف من شعبان،

يُحقِّق اللّه فيها أمل من يدعوه». ثم سكت، وظللنا واقفين صامتين بضع دقائق. وكان وجهي صوب الجنوب الشرقي، حيث تقع سُبُل غير مطروقة وواحات مجهولة، ودار عبد اللّه بوجهه صوب الشمال الشرقي حيث توجد مصر وفيها أسرته وأولاده، ثم تمتم بدعاء خافت، ولم تكن ثمة حاجة لأن أسأله: لِمَ الدعاء.

الاثنين، ٢ أبريل

أخبرني أثناء إقامتي بالهواري بدو القافلة المسافرة من واداي، أن فرقة فرنسية سارت شمالًا حتى وصلت بئر سارة، متبعة في سيرها الطريق التجارية الأصلية من واداي إلى الكفرة.
وكانت هذه الطريق هي التي صمَّمت على أخذها بادئ ذي بدء، ولكن اتضح لي أن الذي لم يُستكشف منها بعد هو الجزء الصغير الواقع بين سارة والكفرة.
وكنت قد سمعت قبل ذلك بعض حكايات غامضة عن واحات مجهولة في الطريق الجنوبي الذي دار بخلدي أن أستكشفه يومًا من الأيام، رغم علمي أن الطريق المستقيم إلى دارفور لم تطأه قدم بدوي أو سوداني؛ لما توهَّم الناس فيه من الصعاب والمخاطر. وغيّرت قصة الفرقة الفرنسية وجهة تفكيري صوب هذه الواحات، وفضَّلت أن أسعى لاكتشافها على أن أتبع خطتي الأصلية.

وكان عزمي من البداية أن أفرغ قصارى جهدي في استكشاف الواحات المجهولة، حتى إذا خِبْتُ في هذا، قطعتُ صحراء ليبيا سائرًا في الطريق المعروفة، فاخترقت واجنجا وواداي، ثم انحدرت جنوبًا إلى دارفور. وجاءني السيد الزروالي وسليمان أبو مطاري يناقشاني في أمر السفر إلى الجنوب، فكانت نصائح أبي مطاري مُثبِّطة لهمتي؛ إذ قال:

«إن آخر قافلة طرقت هذا السبيل منذ ثمان سنين، وكان قائدها أخي محمود، ذُبِح أفرادها وقُطِّعوا إربًا على حدود دارفور، على أنهم لم يسيروا في الطريق التي تريد اتخاذها أنت الآن، وإنما أخذوا الطريق الأسهل من العوينات إلى واحة "مرجه" – وهي واحة صغيرة على بُعد ٢٩٠ كيلومترًا من الجنوب الشرقي للعوينات. أما الرحلة التي تزمع القيام بها، فترمي بك في أصقاع لم تطأها قدم بدوي من قبل، والمرحلة بين العوينات وأردي بعيدة الشقة، كثيرة المخاطر، والله يلطف بالقافلة التي تُقاسي حرَّها الشديد. وأكبر ظني أن جمالك تسقط كالطيور في الطريق أمام ريح السموم الجنوبية، ولو فرضنا أنك اجتزت تلك النواحي سالمًا، فمن يدري كيف يعاملك سكان تلالها الموحشة؟! ونصيحتي لك أن لا تدع شوقك إلى السفر السريع يتغلَّب على حكمتك، فيمنعك اختيار الطريق الآمنة التي يأخذها التجار إلى واجنجا وابشه"». وكان بهذا يُخلِص لي النصح رغبة منه في عدم تعريض حياتي للخطر، فشكرته على نصائحه، ولكني كنت موطِّد العزم على تنفيذ خطتي.

وبعد تناول الغداء الفاخر الذي قدَّمه لنا السيد العابد، ذهبت لزيارة ابنه السيد شروفه، وهو شاب يتوقَّد ذكاءً وتشوُّفًا لتحصيل العلوم، وقد سافر إلى بنغازي، فكان رأيه أنها خير مدن العالم، على ما بها من صغر الحجم وقلة انتشار المدنية. واعتذر لي عن مرض أبيه، فعرضت أن أرسل إليه بعض الدواء الذي أتمنى فيه الشفاء له.

الثلاثاء، ٣ أبريل

كانت حرارة الجو شديدة، والسماء ملبدة بالغيوم، والريح تهب بقوة من الجنوب الغربي. وذهبت بعد تناول الغداء كالعادة لزيارة السيد شمس الدين – ابن عم السيد شروفه – وزيارة

أخيه الأصغر. وكان أكبر هذين ذكيًّا ا ذا عينين براقتين تنمان عن حب الاستطلاع، كما تبدو على أخيه الأصغر علامات النجابة والذكاء. وقدَّم لي ثلاثة أكواب من اللبن، ولوزًا مقشورًا ومُرَبًّى، فأشبعت نفسي إكرامًا لخاطر ضَيفيَّ، وخرجت ممتلئًا، ولم يمنعني ذلك من تناول العشاء في منزل السيد العابد.

وتناقشنا مرة أخرى في خطة السفر بطريق أركنو والعوينات، فرأيتني أثبت ما أكون على رأيي، وانتظرت أن آخذ رأي أبي حليقة بعد عودته من الهواري.

الأربعاء، ٤ أبريل

أيقظني السيد الجداوي في الصباح، وأحضر لي إبريقًا من الشاي المعطَّر، وأحضر لي أحمد أدوات الحلاقة. فشعرت بشيء من عيشة المدن بعد حياة الصحراء.

ولست أكتم القارئ أن هناك لحظات يشعر فيها الإنسان بهشاشة إلى ملاذ المدن وأسباب راحتها، ولكن نفسه تطيب بالسفر الطويل في الصحراء أثناء السير أكثر مما تطيب زمن الإقامة في واحة من الواحات.

ومضى القسم الأول من النهار في تصغير أكثر الصناديق الخشبية، وفي ترتيب الحوائج من جديد تحضيرًا للمرحلة الطويلة إلى الجنوب، وكانت العناية الشديدة لازمة في تحضير كل شيء؛ لأنه لم يكن هناك أي فرصة لاستبدال الجمال حتى نصل الفاشر، وهي على بُعد ١٥٠٠ كيلومتر تقريبًا.

واهتممت باستحضار «أخفاف» جديدة لرجال القافلة؛ لأن الأخفاف التي اشتريتها لهم في جالو قد بليت.

وزارني قبل الغداء بعض شيوخ زوي يقدمون لي واجب

الترحيب، وهم مدفوعون في الحقيقة بدافع الارتياب والتشوُّف إلى معرفة عدد القافلة وحوائجها، والاهتمام بقدر الطاقة باستكشاف الخطط التي دبَّرتها للسفر إلى السودان.

وتغدَّيت عند السيد العابد كالعادة، وسرَّني علمي أن الدواء الذي قدَّمته له نفع فيه. وقضيت بعد ظهر اليوم في تهيئة الأسلحة والذخيرة، وخرجت أترضَّى في المساء لعمل بعض الملاحظات بواسطة بوصلتي عن النواحي المجاورة لبلدة «التاج».

الخميس، ٥ أبريل

كان الزروالي قد أطال في محادثة أبي حليقة الذي وصل أثناء الليل من الهواري، وكان رأي الأخير الرفض الصريح في تنفيذ فكرة السفر إلى الفاشر بطريق العوينات. وجاء لزيارتي وحاول أن يحملني على السفر بطريق واداي، ولكني لم أَلِنْ لنصائحه، فداخله اليأسُ؛ لأني صرَّحت له أن لا شيء يزعزعني عن تنفيذ رغبتي في السفر إلى الفاشر بطريق العوينات.

ودار بيننا الحديث الآتي، قال أبو حليقة: «واللّٰه، إنها لطريق مخوفة، وكم من قافلة أكلها سكان التلال الواقعة في تلك الطريق، إنهم قوم لا يخشون اللّٰه ولا يخضعون لسلطة إنسان، وهم كالطيور يعيشون على قمم الجبال، ولا محيص لك عن الوقوع في مناوشات معهم». فأجبته: «إنا رجال مؤمنون، نوقن أن مصيرنا في يد اللّٰه جل وعلا، فإن قدَّر علينا الموت دهمنا في طريقنا إلى أقرب بئر». فقال أبو حليقة: «كم من شيخ زوي واراه التراب في تلك الأصقاع المجهولة، إن سكانها خائنون لا يخافون اللّٰه ولا يخشون الناس». فأجبته:

«رحم اللّٰه من قضى في تلك البلاد من شيوخ الزوي، إن حياتنا ليست أعزَّ ولا أغلى من حياتهم، ولا يليق بنا أن نكون أقلَّ منهم إقدامًا».

فقال: «إن الماء في تلك الطريق نادر ورديء». وقد قال الله تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ}. فأجبته: «إن الله يطفئ ظمأ المسلمين المؤمنين، ويلحظ بعنايته الصادقين من عباده».

وشعر أبو حليقة أني سأحجُّه في المناقشة، فغيَّر مجرى الحديث، وقال: «ليس بين رجالي من يرضى مرافقتك في تلك الطريق، وليس في مقدوري أن أرمي بجمالي في تلك المفاوز التي يدهمها فيها الموت المحتوم، فإن وجدت من يُكري لك جماله، فإني مستعد لدفع الأجرة المطلوبة، ولكن رجالي وأنا لا نرضى بمرافقتك في تلك الطريق». فأجبته وأنا ملآن حَمِيَّةً: «افعل ما بدا لك، إني سائر إلى الفاشر من تلك الطريق، وسيكون الأمر بينك وبين السيد إدريس حين يعلم أن أبا حليقة لم يُحافظ على كلمته».

وانتهت بيننا المناقشة عند هذا، وعلمت أن أبا حليقة دفع أصحاب الجمال في الكفرة إلى عدم الرضا بمساعدتي في تنفيذ خطتي، آملاً بذلك أن يضطرني إلى قبول السفر إلى واداي بالطريق المأمونة.

وانتهت أيام الضيافة الثلاثة في دار السيد العابد، فأرسل لي الغداء من دار السيد الجداوي وكيل السيد إدريس في الكفرة. وكان أبو حليقة على وشك الرحيل، ولكني دعوته إلى مشاركتنا في تناول الغداء، فرَضِيَ آملاً أن يحملني على تغيير خطتي، وكنت آملاً من الناحية الأخرى أن أُقنعه أن تلك الطريق لم تكن من الخطر بحيث يُتصوَّر. وفرغنا من تناول أكواب الشاي وافترقنا، وليس منا منتصر على أخيه، ولكني شعرت أن كلماتي الأخيرة كان لها تأثير شديد في نفسه.

وجاءني بعد الظهر السيد العابد يحمل إليَّ رغبة سيده في رؤيتي، ولم أكن أحدِّث نفسي بإسراعه في مقابلتي؛ لأني علمت أنه يشكو نقرسًا قاسيًا، وأن من الصعب عليه أن ينزل لمقابلتي في غرفة الزائرين، ولكنه لم يرد أن يداخلني الظن في عدم اتباعه قواعد الضيافة بتأخير مقابلتي، فسمح لي أن أراه بالرغم من تألُّمه. وكانت هذه أول مرة أرَى فيها السيد العابد في هذه السفرة، فشعرت حين دخلت عليه أني أرى صورة حيةً لرسم فاخر من رسوم ألف ليلة وليلة. وكان يلبس قفطانًا من الحرير الأصفر مطرَّزًا بجدائل حمراء، وبرنسًا من الحرير الأبيض مُلقًى على منكبيه، وكان على رأسه عمامة بيضاء يتهدل على جوانبها غلالة ناصعة البياض، هي شارة شيوخ الأسرة السنوسية. وأمسك في يده عصا غليظة من الأبنوس ذات قبضة من الفضة، وكان في هيئته وقار البساطة واللطف، لا يشعر من رآه أنه ذلك الفارس الذي تعرفه المواقع.

وكان يجلس حين قدمت عليه على كرسي كبير حسن التنجيد، فحاول أن يقوم، ولكني أسرعت إليه، وأمسكت يده، ورجوته أن لا يُكلِّف نفسه مئونة القيام لي. وكان يشكو مرَّ الشكوى من داء النقرس، فبدأنا الحديث في أمر مرضه الذي لزمه السنين الطوال، قال: «إني لأضرع إلى اللّٰه إذا اشتدت عليَّ وطأة المرض في بعض الليالي أن يُقصِّر أيامي في هذه الدنيا؛ لأني لا أطيق أن أقوم بالصلاة كما يجب عليَّ». ثم تناولنا أمر رحلتي إلى السودان، فرأيت من حديثه أنه يُفضِّل لي أخذ الطريق المأمونة التي تمر بواداي، فقلت له: «إن السيد إدريس في مصر الآن، وأود أن أُسرع بالانتهاء من رحلتي والعودة إلى وطني حتى أردَّ له بعض جميله فيما لقيت من كرم الأسرة السنوسية، ولا يبلغني هذه الأمنية إلا السفر إلى السودان بطريق العوينات؛ لأنها الطريق الأقصر». فقال:

«إنك صديق حميم لنا، وأظن أن السيد إدريس يُفضِّل لك أن تصل سالمًا إلى مصر، وإن تأخرت عودتك، على أن يسمع بأي أذى نالك». فأجبته قائلاً: «إن مصيرنا في يد اللّٰه، وقد قدر علينا مساعينا، وإني لأحمل معي مباركة شيوخ السنوسيين».

وكان في كلامي لهجة القطع في الأمر، ففكَّر قليلاً ثم رفع رأسه ببطء، وبسط كفيه إلى السماء ثم قال: «نَجَّح اللّٰه مسعاك، وأرجعك سالمًا إلى أهلك، لقد زرت قبر جدنا في جغبوب، ودخلت قبة سيدي المهدي في الكفرة، فنلت بركتهما، واللّٰه في عون من سعى وآمن». ثم قرأ الفاتحة وباركني، وتضرَّع إلى اللّٰه أن يسدد خطاي، وأن يهبني ورجالي القوة والثبات. وتركته وسرتُ في منعطفات الدار وأنا أحس في نفسي سعادة عظيمة، وأراح بالي أن لي عَضُدًا من السيد العابد، وأنه لا يكون عقبة في سبيل تنفيذ خطتي الجديدة في السفر إلى السودان بطريق العوينات.

ودخلت داري فلقيت جميع رجال قافلتي، ورأيت في وجوههم من أول نظرة شوقهم إلى معرفة ما استقر عليه رأي السيد العابد في أمر السفر. ودلَفتُ إلى غرفتي ثم ناديتهم لأسكن خاطري أنا الآخر، وأقرَّ شوقي إلى النجاح الذي أنتظره. ومرت بي برهة طويلة لزمتُ فيها السكوت قبل أن أتمكن من ضبط لهجتي، وأُظهر عدم الاهتمام بهذه المسألة الكبيرة، ثم فاجأتهم بقولي: «لقد بارك السيد العابد رحلتنا إلى العوينات، وقرأ الفاتحة ابتهالاً إلى اللّٰه بتوفيقنا». وأشحت بوجهي عنهم غير مُجترئ على تَوَسُّم وجوههم، وأردفت قائلاً: «ولقد حَلَّت علينا بركة السنوسيين، وزادها السيد العابد توثيقًا، واللّٰه يرزقنا الثبات والنجاح ويهدينا سواء السبيل».



مشايخ قبيلة زوي بالكفرة



بدوي مع جاريته



طارقي بمعداته الحربية في الكفرة